المرتكزات الإيمانية والأخلاقية للعلم
قراءة في فكر سعيد النورسي

د. محمد أمزيان(*)

مقدمة

في تناوله للمشكلات العلمية، وتأملاته في خلق الكائنات وما تكشفه من أسرار وإشارات، اعتمد النورسي مقاربة أخلاقية وإيمانية حاول من خلالها إعادة صياغة العلاقة الجدلية القائمة بين الحقائق الإيمانية وبين الحقائق العلمية، وبين كلمات الله المتلوة في آيات الكتاب العزيز، وبين كلماته المكتوبة على صفحات الكون الطبيعي بكل تجلياته وتنوعاته الزاخرة بالآيات والعلامات المدهشة للعقول. والواقع أن طرح النورسي لهذا الموضوع كان تحديا منهجيا وفلسفيا، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار السياق الحضاري الذي كتب فيه. لقد كانت التقاليد العلمية المهيمنة على التوجهات الفلسفية والأدبية ومراكز إنتاج المعرفة من جامعات ومعاهد، وما تسلحت به من مناهج حديثة في مجال العلوم الإنسانية بكل تفرعاتها وتخصصاتها تقوم على اقتناع فلسفي ومنهجي راسخين بضرورة القطيعة الإبيبستيمولوجية مع المفاهيم اللاهوتية ومثلها الأخلاقية المتوارثة عن الحقبة الكنسية إبان القرون الوسطى.

والواقع أن التأملات التي سجلها النورسي في هذا المجال كانت تمثل الإرهاصات الأولى لتلك الصيحات الفلسفية الجديدة التي سوف تعرفها الساحة الفكرية الغربية لاحقا في النصف الثاني من القرن العشرين، وهي الفترة التي شهدت تحولا لافتا بخصوص جدلية العلاقة بين العلم والتقنية من جهة، وبين الدين والقيم والثقافة من جهة ثانية. لقد شهدت هذه المرحلة سلسلة من المراجعات النقدية لتقاليد فلسفة عصر الأنوار وما أنتجته من عقلانية إقصائية، وعلموية دغمائية، ومن ثم اتجهت إلى تأسيس

(*) جامعة زايد، أبو ظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة. mamezzian@hotmail.com

تقاليد جديدة لا تزال إلى اليوم تكافح من أجل تثبيت وجودها على مستوى الساحة الفكرية والفلسفية، كما على مستوى البحث العلمي والتكنلوجي.

صحيح أن الإشارات التي تركها لنا النورس في هذا المجال كانت مقتضبة على المستوى النظري، لكن الحقيقة التي لا تقبل الجدال، أن الرجل لم يكن مهتما بالتنظير قدر اهتمامه بالممارسة والتطبيق، وهي أبلغ في الدلالة على المقصود، وأصدق في التعبير عن هذا النزوع المنهجي الجديد، وليس من شك أن الفعل يغني عن القول. إن كتابات النورسي وتأملاته العلمية سواء في الأنفس أو الآفاق، إنما هي نسيج متفرد تتراس فيه الحقائق الإيمانية والعلمية جنبا إلى جنب، لا تفتأ تذكر الإنسان بحقيقة وجوده، وغايته في هذا الوجود، ومركزه في هذا الكون، ووظيفته الاستخلافية، وتذكيره بضرورة الوفاء بمقتضيات الأمانة التي تحملها، وهي كل المعاني السامية التي كانت الفلسفة المادية قد أطاحت بها وعملت على إزاحتها من ذاكرة الإنسانية في ظل هيمنة النموذج المعرفي الغربي الموغل في المادية الجاحدة.

أولا: السياق التاريخي للموضوع

كانت التقاليد الغربية المادية المهيمنة على مناهج العلوم هاجس النورسي الأكبر، فقد أخذ على عاتقه مهمة التصدي لهذه الموجة المدمرة التي كانت قد تمكنت من فتنة عقول الشرقيين وإغوائها، والتي تطوع للدفاع عنها والتمكين لها على أرض الإسلام وكلاء محليون، سياسيون ومثقفون، كانوا يمثلون النخبة المتحكمة في مصير شعوبها. لقد عاصر النورسي أخطر مرحلة من مراحل تاريخنا المعاصر، وهي المرحلة الممتدة من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى العقد السادس من القرن العشرين (١٨٧٦-١٩٦٠). فخلال هذه المرحلة شهد العالم الإسلامي انقلابات عاصفة سجلت نهاية وجوده التاريخي على المستوى السياسي، وألغت زمنه الحضاري لتلحقه بالزمن الغربي الذي تمكن بقوة السلاح من تفكيك أبنيته النظرية والاجتماعية والأخلاقية، وأرغمه على تبني نموذجه تحت طائلة الإكراه السياسي والعسكري.

وعلى المستوى الثقافي والأيديولوجي، شهدت هذه المرحلة ترعرع نخبة من المثقفين المتغربين الذين تشربوا ثوابت الثقافة الغربية وتشبعوا بأفكارها المادية والإلحادية، وغلب عليهم النزوع التبشيري بالمنظومة الغربية، والتحرر من مرجعية النص الديني، والحدة والجرأة في إعلان القطيعة مع الموروث الروحي والفكري للأمة،

وكل ذلك تحت شعار العلم والمنهج العلمي والعقلانية، وغيرها من الشعارات التي تخفوا وراءها لشن حرب استئصالية مدمرة ضد كل ما يمت إلى الثوابت الدينية بصلة. لقد كان الشعار الذي يوحدهم - بالرغم من تباين انتماءاتهم المدرسية الغربية- هو شعار الإلحاد المتترس بالعلم، وهو ما عبر عنه أحد الشعراء بلسان حالهم إذ يقول:

آمنوا بالعلم دينا وهدى ليس بعد العلم للأفهام دين[١].

ولم تكن هذه الموجة الكاسحة مقتصرة على الداخل التركي فحسب، بل كانت موجة عارمة اكتسحت مجموع العالم الإسلامي، وتجدرت بقوة في أقطاره الأكثر تقدما من الناحية المعرفية والثقافية كما حصل في مصر. كما لم تقتصر هذه الموجة على التيارات الليبيرالية المتطرفة في الدعوة إلى تبني المنظومة الغربية، بل امتد أثرها بقوة إلى التيارات الإصلاحية الإسلامية التي وقعت تحت تأثير عقلانية فلسفة الأنوار والعلم التجريبي المتنكر للغيبيات وحقائق الإيمان.

ومن المهم الإشارة هنا إلى دور تركيا الكمالية آنذاك في إلهام النخب الفكرية خارج تركيا بغض النظر عن مشاربها الفكرية والأيديولوجية، فقد وجدت هذه النخب في الانقلاب التركي دعما استراتيجيا يدعم أطروحتها المناهضة للأديان، والمتحررة من سلطة الإيمان. وتعتبر أعمال شيخ الإسلام مصطفى صبري آخر شيوخ الدولة العثمانية وثائق تاريخية مهمة في التأريخ لهذا التمرد ضد الأديان عموما والإسلام خاصة، وقد كان يأمل أن يجد في هجرته إلى مصر، بلد الأزهر، سندا وعونا لنصرة قضية الإيمان، لكن صدمته كانت موجعة لما رآه من تعاطف النخب الفكرية واستبطانهم للإلحاد وإعراضهم عن الدين، ورميهم إياه بخيانة الدين والوطن[٢]. فمن قلب الأزهر انطلقت الدعوة إلى إنكار المعجزات وتأويل القضايا الغيبية التي لا يثبتها العلم المادي، وتلك قضية أثارت الكثير من الجدل، وناضل في سبيلها كبار رجالات الأزهر آنذاك[٣].

---

(١) ينظر مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار إحياء التراث العربي، ط٢، سنة ١٩٨١،ج١، ٩٨.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٠١-١٠٢.

(٣) ينظر على سبيل المثال أفكار رواد الإصلاح، خاصة محمد عبده وأتباع مدرسته أمثال فريد وجدي بك، والشيخ شلتوت، والأستاذ الأكبر المراغي وغيرهم.

كان هذا الصراع الفكري ضد قضية الإيمان باسم العلم بمثابة إعصار جارف يستهدف اقتلاع الإيمان من النفوس والمجتمع، وطرائق التفكير، ونمط الحياة، وبرامج التعليم، وفنون الآداب، دون أية حدود ينتهي عندها. ولقد كان سعيد النورسي يعي زمنه جيدا، وكان يدرك أن "عدد الذين يضلون بسبب افتتانهم بالعلوم والفنون الحديثة، ويقفون بعناد وتمرد في وجه حقائق الإيمان، قد زاد أضعاف أضعاف الماضي. ولما كان هؤلاء المعاندون يعارضون الحقائق الإيمانية بغرور فرعوني، وبتضليلات رهيبة، فلا مناص من أن يجابهوا بحقائق قدسية في قوة القنبلة الذرية لتحطيم مبادئهم وأسسهم في هذه الدنيا، وتوقف زحفهم وتجاوزهم"[١]. كانت الكلمة سلاح النورسي، وكان يدرك أنها أمضى الأسلحة على الباطل على الإطلاق، فقد جمعت كلمات النورسي بين دليل المنطق، وحجية العلم، وحقائق الإيمان، وانفعال الوجدان. وكان يدرك أن تأليفا من هذا النوع يتطلب نوعية من الرجال امتزج في وجدانهم عشق المعرفة بنور الإيمان. لقد كانت "رسائل النور" ثمرة هذا المزج الذي أراده –كما قال– "ترياقا شافيا لجروح عصرنا الدامية، ومعجزة معنوية من معجزات القرآن الحكيم، فقد استطاعت بموازناتها العديدة أن تحارب أشد المعاندين المتعنتين بسيف القرآن، وتنصب الحجج وتقيم الأدلة على الوحدانية الإلهية وحقائق الإيمان"[٢].

وكذلك كان، فقد كان لكلماته بالغ الأثر في عرقلة خطط الإلحاد المنظم. لكن المشروع الإلحادي لم يكن فقط من طبيعة فكرية ومعرفية، كما أنه لم يكن متروكا لاختيار الأفراد وضمائر الناس، بل كان من طبيعة مؤسساتية، يقف وراءه إرادة سياسية، ويتمتع بحماية مؤسسات الدولة، بما فيها المؤسسات التعليمية والقضائية والإدارة العمومية، بل ومؤسسة الجيش. كانت المجابهة إذن بين مشرعين متناقضين في الأهداف والمقاصد، ومن ثم كان لابد أن يصطدما على أرض الواقع. ومع أنهما لم يكونا متكافئين من حيث الإمكانات المادية والتنظيم المؤسساتي، إلا أن صوت الكلمة المتسلحة بحجة العلم وقوة الإيمان كان دائما أعلى وأثبت. لقد واجه سعيد النورسي هذا التحدي بهمة عالية، وعزيمة ثابتة، وتجرد كامل، ويقين مطلق في عدالة قضيته التي لم تثنه عنها صنوف الترهيب وجراحات السجون. ففي جرأة نادرة، وقف يواجه محاكم

(١) سعيد النورسي، صقيل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢، ص٤٨٧.

(٢) المرجع السابق.

الموت بتهمة الدفاع عن الإيمان، وكان جوابه للحاكم العسكري خورشيد باشا الذي أوقفه أمام ثلة من الشرفاء الذي علقوا على أعواد المشانق، وهو يهدده بالإعدام شنقا: "لو أن لي ألف روح لما تردّدت أن أجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام، فقد قلت: إنني طالب علم، لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة، إنني لا أعترف إلا بملة الإسلام. ألا لقد حان للسرائر أن تنكشف، وتبدو من أعماق القلب، فمن كان غير محرم فلا ينظر إليها...لقد كانت الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد وهي الآن تعادي الحياة، وإذا كانت هذه الحكومة هكذا، فليعش الجنون، وليعش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم".[1]

تلك كانت مجابهته للمؤسسة الحاضنة للمشروع الإلحادي، فماذا عن مجابهته للنسق الفكري والأيديولوجي للمشروع ذاته؟

ثانيا: العلموية كنسق معرفي بديل عن النسق الديني

كان النورسي يتمتع بحس نقدي ووعي ثاقب، وهذه الميزة مكنته من كشف حقيقة الفلسفة الغربية وإزاحة القناع عن وجهها الإلحادي المتستر بالعلم، وتلك مسألة في غاية الأهمية بالنظر إلى الرواج الذي لقيته لدى أوساط المتعلمين والنخب المثقفة والحاكمة من جيله.

لكن هذا الوجه الدعائي الذي هيمن على فئة عريضة من الشرقيين المتغربين لم يكن ليصمد في عقر داره أمام موجة الكتابات النقدية التي بدأت تتمرد على تقاليد المنهج العلمي الذي أرسته عقلانية فلسفة الأنوار والفلسفة الوضعية في القرن التاسع عشر، وما أعقبها من مدارس ومناهج تأسست في مجموعها على القطيعة مع الدين. كان جوهر هذه الانتقادات يمس مصداقية العلم الذي أدين بتهمة التحول إلى مطلق دغمائي يحل محل المطل الديني الذي قام على أنقاضه. وهذا النزوع الأيديولوجي والتبشيري للعلم اصطلح على تسميته بـ"العلموية"، وهذا الاصطلاح يستخدم لانتقاد التوجه الفلسفي الذي يعتقد أن العلوم أكثر أهمية من الآداب في فهم العالم، وأن المنهجية العلمية هي وحدها المقبولة فكريا[2]، وهو ما برر لهؤلاء النقاد القول بأن

---

(١) حادثة ٣١ مارت (١٩٠٩/٤/١٣)، سيرة ذاتية، النسخة الإليكترونية، ص١٠٣. انظر موقع سعيد النورسي: http://www.nuronline.com/kulliyat.php?bn=11&pn=tarihce

(٢) Le scientisme : une mauvaise herbe dans le jardin de l'enseignement des sciences?

العلموية ليست من طبيعة علمية، بل أطروحة فلسفية تحتكر الحقيقة العلمية[١]. والدعوى الأساسية لهذه الأطروحة، إضافة إلى كونها تحصر الحقيقة العلمية في مناهج العلوم الطبيعية والفيزيائية، وتعمل على تعميم تلك المناهج لتشمل كل العلوم الإنسانية والاجتماعية، ادعاؤها قدرة العلم على تقمص دور الفلسفة والميتافيزيقا في البحث عن حلول لمشكلات الإنسان الكبرى الأخلاقية والمعنوية، وهي من ثم تحيل إلى نوع من الثقة الزائدة في العلم الذي يتحول معها إلى عقيدة[٢]. وهذا الاعتقاد -كما يقول نقاد العلموية- يسند إلى العلم كل المبادئ التي كانت تنسب إلى الدين[٣]، حتى أصبح إنسان القرن العشرين ينظر إلى العلم على أنه منقذ البشرية[٤].

هذه الأطروحة الفلسفية بكل أبعادها التبشيرية النافية للدين، استوعبها سعيد النورسى بحسه النقدى الثاقب، إذا رأى فيها مشروعا شموليا يستهدف هدم لأديان ومصادرة الإيمان من واقع الحياة، ومن ثم اتجه إلى هدم هذه "الدغمائية" المنافية لقواعد البحث العلمى وقوانين المنطق العقلى. فإذا كانت وظيفة العلم تتحدد فى أداتيته الاستكشافية، فإن تجاوزه حدود هذه الوظيفة إلى ادعاء الإطلاق والكمال يعرضه للإدانة لا محالة، إذ ليس هناك ما يصادر الموضوعية العلمية أكبر من الخيانة فى العلم. وتهمة الخيانة فى العلم إنما تتحقق بالادعاء، وهى تهمة نافذة فى حق "العلموية" بجحودها للخالق، ونسبت بديع الصنعة إلى الفعل الذاتى. وهذه التهمة استدعت جملة من الاعتراضات التى أوردها النورسى على سبيل التبكيت والإلزام بما يحمل على الإقرار والإذعان. يقول على سبيل المثال: "فيا أيها الغافل الحائر الجاحد! كيف تفسر هذه التربية المكللة بالحكمة البالغة، والكرم الشامل، والرحمة الواسعة، والرزق الوفير، وبمَ توضح هذه المظاهر المعجزة؟ أفيمكن تفسيرها بالمصادفة العشواء؟ أم يمكن توضيحها بالقوة الميتة موات قلبك؟ أم يمكن ذلك بالطبيعة الصمَّاء صمَم عقلك؟ أم بالأسباب العاجزة الجامدة الجاهلة مثلك؟ أم تريد أن ترتكب خطأً جسيماً ما بعده خطأ، وهو إطلاقك صفات البارئ الجليل المنزّه المتعال والقدير العليم السميع البصير على

Connexion. Bulletin international de l'enseignement scientifique et technologique et de l'éduction environnementale de L'UNESCO. VOL. XXX, No. 3-4, 2005. P.3.

(١) Encyclopédie de l'Agora: Scientisme. – http://agora.qc.ca./mot.nsf/dossiers/scientisme

(٢) http://fr.wikipedia.org/wiki/scientisme

(٣) Encyclopédie de l'Agora: Scientisme. Op.cit.

(٤) Raymond Aron, Les Etapes de la pensée sociologique. édition Gallimard. 1967. P: 301.

"الطبيعة"العاجزة الجاهلة الصمَّاء العمياء؟ فبأى قوة يمكنك أن تطفئ سراج هذه الحقيقة الساطعة سطوع الشمس؟ وتحت أي ستار من أستار الغفلة يمكنك أن تسترها[١]؟

١- العلموية وتأليه الطبيعة

أدرك النورسي أن الفكرة التي بنت عليها العلموية عقيدتها تكمن في إيجاد مبدأ يُسند إليه تفسير الوجود يقوم مقام المبدأ الديني، فكانت الطبيعة هي الأساس البديل الذي يقدم تفسيرا موازيا ومصادرا في نفس الوقت للعقيدة الدينية. لذلك، اتجه النورسي إلى محاربة هذا الأطروحة بنفس أسلحتها، فوجه نظره إلى الطبيعة يستجلي أسرارها ويستكشف نظامها، ويخضع أجزاءها لتشريح النظر العلمي لتحديد كنهها وماهيتها، وتفسير وظيفتها، وإعادة رسم حدودها.

في مشروعه العلمي هذا، ينطلق النورسي في سياحة علمية استكشافية دؤوبة، يجوب فيها خبايا الآفاق والأنفس، بأسلوب منطقي أخاذ، يستنطق فيها أجزاء الطبيعة وأعيانها، دقها وجليلها، فإذا هي تحدث أخبارها وتكشف سر عبوديتها، وتشهد بعجزها وافتقارها إلى خالقها ومبدعها، بما أودعه فيها من نظام، وما جبلت عليه من تعاون وتكامل، يظهر كمال الحكمة في بنائها، وجمال الإتقان في ترتيبها، وبديع الصنعة في مقاديرها، ودقة النظام في حركتها، وآيات الإعجاز في تنوع أعيانها، فإذا هي شموس ساطعة تنتصب شاهدة على باريها وخالقها. تلك هي النتيجة التي خلص إليها النورسي: "إن الطبيعة ما هي إلا صنعة إلهية ولا تكون صانعا، وهي كتاب رباني ولا تكون كاتبا، وهي نقش بديع ومحال أن تكون نقاشا، وهي قانون ولا تكون قدرة، وهي مسطر ولا تكون مصدرا للوجود، وهي شيء منفعل ولا تكون الفاعل، وهي نظام ومحال أن تكون ناظما، وهي شريعة فطرية وممتنع أن تكون شارعا مشرعا"[٢].

لقد هاجم النورسي بقوة عقيدة تقديس الطبيعة التي حلت في عرفهم محل الإله الخالق، ولقد أدرك أن هذه العقيدة قامت على فرضية خاطئة أنزلتها العلموية منزلة

---

(١) الكلمات، النسخة الإليكترونية، ص٧٩٨. موقع سعيد النورسي:
http://www.nuronline.com/kulliyat.php?bn=11&pn=tarihce

(٢) سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ب ت، ص٥٧٦. وينظر في المعنى ذاته: سعيد النورسي، الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٣، سنة١٩٩٩، ص٦٨.

المسلمات، وهي استقلالية الطبيعة بالفعل الذاتي استنادا إلى قانون السببية الذي يحكم ظواهرها، وهي فرضية عمل على نقضها بأساليب برهانية متنوعة، استهدفت فك أغلال العقول الجاحدة، وأقفال القلوب الغافلة.

أ- استقلالية الأسباب استحالة عقلية

في نقضه لهذه الفرضية، يحتكم النورسي إلى منطق العقل الذي لا يجيز المستحيلات، والحال أن دعوى استقلالية الأسباب عن مسبباتها من المستحيلات في ميزان العقول، استنادا إلى مبدأ السببية ذاته الذي ترتبط فيه المعلولات بعللها بالضرورة. يقول النورسي: "كتاب الكون هذا، إذا قلتَ إنه كتابة قلمٍ وقدرة الصمد، ومكتوبُ الواحد الأحد، فقد سلكتَ إذن طريقاً سهلة بدرجة الوجوب، ومعقولةً بدرجة الضرورة، ولكن إذا ما أسندته إلى الطبيعة والى الأسباب، فقد سلكت طريقاً صعبة بدرجة الامتناع، وذات إشكالات عويصة بدرجة المحال، وذات خرافات لاشك فيها، إذ يلزم أن تنشئ الطبيعةُ في كل جزء تراب، وفي كل قطرة ماء، وفي كل كتلة هواء ملايين الملايين من مطابع معدنية، وما لا يحد من مصانع معنوية، كي يُظهر كلُّ جزءٍ من تلك الأجزاء وينشئ ما لا يعد ولا يحصى من النباتات المزهرة والمثمرة.. أو تضطر إلى قبول وجود علمٍ محيط بكل شيء، وقوةٍ مقتدرة على كل شيء في كل منها، كي يكون مصدراً حقيقياً لهذه المصنوعات...، والحال أن تركيب كل نباتٍ منتظمٌ وموزون ومتمايز، ومختلف نوعاً، فكلٌ منه إذن بحاجة إلى معمل معنوي خاص به وحده، وإلى مطبعة تخصّه هو فقط. فالطبيعة إذن إذا خرجت عن كونها وحدةَ قياسٍ للموجودات إلى مصدرٍ لوجودها، فما عليها إلاّ إحضار مكائن جميع الأشياء في كل شيء، وهكذا فإن أساس فكرة عبادة الطبيعة هذه خرافة بئست الخرافة!. حتى الخرافيون أنفسهم يخجلون منها. فتأمل في أهل الضلالة الذين يعدّون أنفسهم عقلاء كيف تمسكوا بفكرة غير معقولة بالمرة، ثم اعتبر"[1].

ب- الأسباب أمارات دالة على مسببها

إذا كانت الأسباب غير فاعلة بذاتها لزم اعتبارها دلائل دالة على مسببها ومرتبها. إن الفلسفة المادية انتهى نظرها عند الأسباب الظاهرة دون مسببها ومنشئها، ولذلك، فهي - كما يقول النورسي- "غرقت في تزيينات حروف الموجودات، وظلّت مبهوتة أمام

(١) الكلمات، مرجع سابق، ص ٣٣٤-٣٣٥.

علاقات بعضها ببعض حتى ضلت عن الحقيقة. فبينما كان عليها أن تنظر إلى كتاب الكون نظرتها إلى الحروف الدالة على كاتبها، قد نظرت إليها بالمعنى الاسمي، أي أن الموجودات قائمة بذاتها، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هذا! بدلاً من: ما أجمل خلق هذا، سالبة بهذا القول الجمال الحقيقي للشيء[١]. إن الغارق في عبادة الأسباب –كما يقول النورسي– يغفل عن الفاعل الحقيقي الذي هو القدرة الصمدانية. وجريا على عادته في الأسلوب التمثيلي وضرب الأمثال، يشبه الأسباب بمأموري السلطان الأزلي وموظفيه، وهم ليسوا المنفّذين الحقيقيين لأمور سلطنة الربوبية، بل دالون على عظمته[٢].

ج- الفعل الذاتي يستلزم تعدد الآلهة

إن إسناد الفعل إلى الطبيعة ذاتها يقتضى بالضرورة كونها ذات صفات أزلية ومطلقة حتى تكون مصدر أفعالها. وإذا كانت الطبيعة مفهوما كليا لا وجود لها خارج أعيانها، لزم بالضرورة نسبة تلك الصفات إلى كل جزء من أجزائها، فيلزم أن "تكون فى كل ذرة من ذرات التراب مصانعُ ومكائنُ ومطابعُ معنويةٌ بعدد النباتات كى تصبح منشأً لتلك النباتات ذات الأجهزة المتباينة والأشكال المختلفة، أو يجب إسناد علم يحيط بجميع الموجودات إلى كل ذرة وقدرة تقدر على القيام بعمل جميع الأجهزة والأشكال فيها كى تكون مصدراً لجميعها، أى أنه إذا ما انقطع الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى، ينبغى قبول وجود آلهة بعدد ذرات التراب! وهذه خرافة مستحيلة في ألف محال ومحال[٣].

د- فناء الطبيعة يبطل استقلاليتها بالفعل السببي

ويستند النورسي أيضا إلى فكرة فناء الطبيعة وتجددها لإبطال دعوى استقلاليتها بالفعل السببي، إذ ما من محال في العقل أكبر من أن نسند الأسباب إلى ذوات يحكم وجودها قانون النسبية والظرفية، وهو دليل افتقارها إلى محركها ومبدع أطواها وأقدارها وأزمان وجودها وفنائها. يقول النورسي: "هذه الموجودات السيالة إذ تشهد بوجودها وحياتها على وجوب وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى أحديته فإنها تشهد بزوالها وموتها أيضاً على وجود الخالق سبحانه، وعلى أزليته وسرمديته وأحديته... كما أنها

---

(١) الكلمات، مرجع سابق ، ص١٤٤.

(٢) نفسه، ص٣٢٦.

(٣) نفسه، صفحات:٣٣٢-٧٢٦ – ٧٩٦.

تشهد على وجود ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فان موت تلك المصنوعات وزوالها بأسبابها الظاهرة يبيّن تفاهة تلك الأسباب وعجزها، وكونها ستاراً وحجاباً ليس إلاّ. فيُثبت لنا هذا الوضع إثباتاً قاطعا أن هذه الخِلقة والصَنعة، وهذه النقوش والتجليات، إنما هي مصنوعاتٌ ومخلوقاتٌ متجددةٌ للخالق جل جلاله الذي جميع أسمائه حُسنى مقدّسة، بل هي نقوشه المتحولة، ومراياه المتحركة، وآياته المتعاقبة، وأختامه المتبدلة بحكمة[١].

٢- العلموية وتأليه الإنسان

من المآخذ التي سجلها النقاد على الفلسفة الغربية اعتبارها العلم مرجعية مطلقة في تحديد رؤية الإنسان لذاته وعلاقاته الحياتية، وعلاقته بالكون من حوله . فمع هذا الموقف الجاحد يستغني الإنسان عن الإله المتعالي، ويدعي استقلاله بالفعل التاريخي، ويعلن تمرده وتحرره من التدخل الإلهي في الفعل التاريخي، لينصب نفسه مركزا للكون، "يقوم بوظيفة الإله ذاتها"[٢]. لقد شهدت هذه العلاقة الصدامية بين العلم والدين تراجعا مهما مع النصف الثاني من القرن العشرين على يد كبار رواد العلوم أنفسهم. ففي وصفه لهذه العلاقة يقول ورنر هايزنبرغ (Werner Heisenberg)، وهو أحد أعمدة الفيزياء الحديثة في القرن العشرين: "لقد طور القرن التاسع عشر هيكلا صارما جدّا لعلم الطبيعة، وهذا الهيكل لم يتحكم في شكل العلم فحسب، بل ساهم في تشكيل النظرة العامة لدى الجماهير الكبيرة من الناس... لقد كان هذا الهيكل على قدر كبير من الصرامة والضيق استعصى معه إيجاد مكان بداخله لبعض التصورات التي تحملها لغتنا والتي شكلت دائما جزءاً لا يتجزأ من ماهية هذه اللغة مثل التصورات الخاصة بالعقل والروح الإنسانية والحياة... لقد نما عداء العلم نحو الدين... فحلت الثقة في الطريقة العلمية، وفي الفكر العقلاني محل الثقة في معاقل العقل الإنساني الأخرى"[٣].

---

(١) نفسه، ص٣٤٢.

(٢) يقول إدغار موران: "منذ تلك اللحظة التي أعلن فيها عدم وجود الله الذي هو أصل كل حقيقة، اتجه الفلاسفة إلى البحث عن أصل أي تصور ممكن". انظر: Edgar Morin.« Ouverture » in : Modernité 2004, Auditions publiques au théâtre du Rond-point . Cahier Laser N°8.P.39-40.

(٣) انظر: Werner Heisenberg, Physics and philosophy: The Revolution in Modern Science (New York .Hayper & Raw, 1958). 197-98. نقلا عن بحث: التجديد والإصلاح في منتصف القرن العشرين: سعيد النورسي والمسألة الدينية، دجون أوبرت فول، ترجمة: خالد حاجي، مجلة المنعطف المغربية، العدد:١٨/١٩، سنة ٢٠٠١، ص١٦٢.

مع هذه الفلسفة الجاحدة التي ينتصب فيها العقل مرجعا للطبيعة وللإنسان على السواء، يسقط مبدأ "التسامي" الذي يحيل إلى الإله المتعالي ليحل محله مبدأ "الاكتفاء" أو الاستغناء الذي يحيل إلى "الأنا"، أي الذات المكتفية بذاتها، والمستغنية عن مبدأ وجودها. وبعبارة النورسي، إن هذه "الأنا" تدل على نفسها بنفسها، وتزعم أن وجودها أصيل ذاتي، وأنها مالك حقيقي، وتعمل لأجلها فحسب، وتزعم أن وظيفتها هي الترقي والتكامل الذاتي الناشئ من حب الذات[١]. ولا يخفي النورسي انزعاجه من هذه النزعة الغاوية التي فتنت عقول البشر، وتوغلت في النسيج الفكري والثقافي لجيل عصره، لذلك شبهها بشجرة الزقوم التي لوثت بطعمها الخبيث العقول والقلوب، "وغطت بضلالها نصف البشرية، وحادت بهم عن سواء السبيل"[٢].

وتتلخص اعتراضات النورسي على هذا المنحى الفلسفي في خضوعه لمبدأ النسبية، ووقوعه تحت طائلة الادعاء والخيانة العلمية، وهي سمات موجهة ضد اليقين العلمي والموضوعية العلمية التي كانت تبشر بها العلموية، والتي اتخذت منها أساس مصداقيتها ابتداء.

أ- نسبية "الأنا"

إن العقلانية المطلقة التى كانت تدعيها فلسفة الأنوار لم تكن فى الواقع سوى رد فعل غير محسوب فى صراعها ضد سيطرة الفكر اللاهوتى وادعائه احتكاره الحقيقة العلمية. ويمكن القول بأن مرحلة الأنوار والاعتقاد فى مطلقية العقل لم تكن سوى فترة مراهقة فى تاريخ العلم ومسيرته التطورية سرعان ما تم تجاوزها وإسقاطها إلى الأبد. لقد أشار عالم الفيزياء السالف الذكر هايزنبرغ إلى أن "اللغة العلمية للميكانيكا النيوتونية اعتبرت خطأ بمثابة اللغة الأخيرة، لكن الهيكل الصارم القديم أخذ فى التفتت فى القرن العشرين تحت وقع النظرة النسبية وميكانيكا الكوانطا"[٣].

والواقع أن مبدأ النسبية هذا يعتبر أهم سند اتكأ عليه النورسى فى نقده. فإذا كانت "الأنا" فى حد ذاتها نسبية فى ماهيتها ووجودها، فكيف لها أن تنتج أدوات معرفية مطلقة. يقول النورسي: "إن الحقيقة المطلقة لا تحيط بها أنظار محدودة مقيدة إذ تستلزم

---

(١) الكلمات، مرجع سابق، ص٦٤١-٦٤٢.

(٢) نفسه، ص ٦٤٢.

(٣) Physics and philosophy ، مجلة المنعطف، مرجع سابق، ص١٦٢.

نظراً كلياً كنظر القرآن الكريم ليحيط بها. فكل ما سوى القرآن الكريم - ولو يتلقى الدرس منه - لا يرى تماماً بعقله الجزئى المحدود إلاّ طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكاملة فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه، وينحصر فيه، فيخلّ بالموازنة التى بين الحقائق، ويزيل تناسقها إما بالإفراط أو بالتفريط[١]. إن القرآن وحده مصدر الحقائق المطلقة لأن مصدره كذلك، ثبتت له صفات الكمال المطلق، وما عداه فنسبى محكوم بقيود الزمان والمكان اللذين يبتلعانه، فكيف له الانفكاك عنهما والتطاول إلى خارج حدودهما. لذلك، يقول النورسى بحق: "إن العقل الذى يتطاول إلى الإحاطة بالعالم والنفاذ إلى الخارج، والخروج من دائرة الإمكان، يغرق فى قطرة، ويفنى فى ذرة، ويغيب فى شعرة، وينحصر الوجود عنده فيما فنى فيه، ويريد أن يدخل معه كل ما أحاط به فى النقطة التي بلعته"[٢].

ب- بين العقل العابد والعقل الجاحد

إن ماهية العقل الذى تستبطنه "الأنا" النسبية يحكمه المبدأ ذاته، ومن ثم فإن ادعاءه الإحاطة والشمول إن هو إلا مكابرة وجحود ومحض ادعاء. إن العقل الجاحد الذى يستقل بذاته عن خالقه يمارس نشاطا ضد الحقيقة العلمية ذاتها لما يدعيه من ربوبية ليست فى النهاية سوى دعوى زائفة. إن "ربوبيته -يقول النورسى- خيالية، ووجوده ضعيف وهزيل إلى حدٍ لا يطيق أن يحمل بذاته أى شىء كان، ولا يطيق أن يُحمَل عليه شىء، بل هو ميزان ليس إلاّ؛ يبين صفات الله تعالى التى هى مطلقة ومحيطة بكل شىء، بمثل ما يبيّن ميزانُ الحرارة وميزان الهواء والموازين الأخرى مقاديرَ الأشياء ودرجاتها[٣]. هكذا يعود النورسى بالعقل الإنسانى إلى حدوده الطبيعية بإظهار عجزه وافتقاره إلى خالقه، وتجريده من سلطته الموهومة. فـ"وجوده تَبَعى، أى قائم بوجود غيره وبإيجاده، ومالكيته للأشياء وهمية، أى: إن له مالكية مؤقتة ظاهرية بإذن مالكه الحقيقى، وحقيقته ظلية وليست أصيلة، أى أنه ممكنٌ مخلوق هزيل، وظلٌ ضعيف يعكس تجلياً لحقيقة واجبة حقة. أما وظيفته فهي القيام بطاعة مولاه، طاعة شعوريةً كاملة، لكونه

---

(١) الكلمات، مرجع سابق، ص٥١٢.

(٢) سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٥، ص٢٢٥.

(٣) الكلمات، مرجع سابق، ص٦٣٧-٦٣٨

ميزاناً لمعرفة صفات خالقه، ومقياساً للتعرف على شؤونه سبحانه"[١]. ومع هذه الوظيفة التعبدية التى يستكشف من خلالها "الأنا" ذاته، ويعى حقيقته وماهيته، تتكشف أمامه الحقيقة الأزلية ويتجلى له عجزه، فـ "يفوّض المُلكَ لله وحده قائلاً: له الملك وله الحمد، وله الحكم وإليه ترجعون، فيلبس لباس عبوديته الحقّة، ويرتقى إلى مقام أحسن تقويم"[٢].

ثانيا: العلموية كنسق براغماتي بديل عن النسق المعياري

تحصر العلموية وظيفة العلم في دراسة الوقائع المنظور، أي دراسة ما هو واقع بالفعل، وليس له أية علاقة بما ينبغي أن يكون، وهي مسألة من طبيعة أخلاقية. وعلى هذا الأساس تفصل مناهج العلوم الحديثة بين العلم والقيم وتضع المفهومين في وضع التقابل والتضاد، يقتضي تبني أحدهما نفي الآخر. واستنادا إلى هذا التقابل نشأ التقسيم التقليدي للعلوم، فهي إما علوم وصفية أو علوم معيارية[٣]. وجريا على هذا التقليد العلموي، توصف الأولى بكونها علوم موضوعية، أي ذات نتائج علمية يقينية بحكم مطابقتها للواقع، في حين توضع الثانية في خانة "الذاتية" بحكم تأثرها بأحكام قيمية لا تخضع للقياس الكمي أو العددي.

والواقع أن هذا الفصل المنهجي لم يكن مجرد إجراء منهجي يتعلق بأسلوب البحث العلمي، بل نسقا فلسفيا يبشر بنمط حياتي جديد تتحدد فيه العلاقات الإنسانية على أساس المنفعة وحساب المصالح دونما اعتبار للقيم الأخلاقية التي هي من طبيعة معنوية لا يمكن ترجمتها إلى لغة الأرقام.

١- البراغماتية وعبادة القوة

إن النموذج الحياتى الذى أرسته عقلانية الأنوار كان يمجد القوة بدل الحق، ويحل القيم النفعية والأنانية محل قيم التضامن والأخوة الإنسانية. إن هيمنة هذا النموذج وتوغله فى النسيج الاجتماعى وتحكمه فى نظرة الإنسان الحديث إلى الحياة ونمط العلاقات الإنسانية هو العامل الأساس الذى أدى إلى إفلاس الإنسان المعاصر. ذلك أن العلم التجريبي الذي اتخذ منه معبوده الجديد –كما يقول البروفيسور رجاء غارودي–

(١) نفسه، ص٦٤١.

(٢) الكلمات، مرجع سابق ، ص٦٣٨.

(٣) إبراهيم مذكور، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥، ص٧٥٧.

يكتفى بطرح سؤال الوسائل "كيف" ولكنه لا يطرح سؤال الغايات "لماذا". وإذا كان تقديس السؤال الأول قد أدى إلى مراكمة عالم الأشياء والسيطرة على الطبيعة والبشر باستخدام القوة التقنية والعسكرية، فإن تغييب السؤال الثانى أدى إلى القتل المعنوى للإنسان الذى فقد معنى حياته ووجوده، وترك نهبا لليأس والأنانية والفردانية، وأقام العلاقات البشرية على مبدأ "حرب الكل ضد الكل"[١].

إن العلم المادى الذى أعلن قطيعته مع الإيمان والقيم، لم يكن بمقدوره أن يعد الإنسان بقيم مجردة لا يجد أثرها المادى المحسوس، إن عملا من هذا القبيل هو عمل غير عقلانى بمنظور العلم المادى الذى لا يتعامل إلا بلغة الحساب الكمى والعددى، وهو ما جعل جاك غرينغال فى كتابه "أزمة وهمسات" يتهم هذا العلم بمسؤوليته عن إبادة الأحياء، ويتهم إنسانية العقلانية بالغوص فى الجنون من فرط اعتقادها فى العقل دون سواه، وعدم قبولها من الواقع إلا ما هو عقلانى[٢].

إن طرح الموضوع ضمن سياقه الحضارى هذا يتيح لنا فهم وإدراك قيمة العمل النقدى الذى أثاره سعيد النورسى فى رسائله ضد العقل الجاحد، والذى حمله مسؤولية التردى الإنسانى الذى انحدرت إليه المدنية الغربية المعاصرة. ففى موازنته بين المدنية الشرعية والمدنية الغربية، يرصد النورسى خمسة أسس يرى أنها تشكل مدار هذه المدنية ومحورها، وهى نفسها الأسس التى اعتمدها النقاد الغربيون فى إدانة هذه المدنية. لقد أدان النورسى أسس هذه المدنية فى مرتكزاتها الفلسفية، وأهدافها ومقاصدها، كما فى نهجها وأسلوب حياتها: "فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. وهدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية. ودستورها فى الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. ورابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التى تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع

---

(١) Roger Garaudy, Biographie du XXème siècle, Tougui, 1985. P.146.

(٢) انظر: أحمد بنبلا، النسب اللعين: نقد العقل الغربي، مجلة المنعطف، العدد ٢٤/٢٣، سنة ٢٠٠٤، ص٣٠.

الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً. إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت فى صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب"[١].

والواقع أن هذا التشبيه ليس مجرد بلاغة لفظية بل تعبير مجازى عن حقيقة اجتماعية قائمة فى الواقع الإنسانى الاجتماعى الذى أرسته عقلانية الأنوار. فإنسان العقلانية الذى بشر به هوبز فى كتابه (Leviathan)، هو "إنسان شرس، بهيمى، وفظ غليظ القلب...يعيش فى حالة توحش وعداء. وهذا يفترض طبيعة عدائية لا طبيعة ودية متناغمة، ويكون مصدرا للعنف لا للحياة الاجتماعية، ويعوض القصدَ بالعنف، والذكاءَ بالغريزة. وعلى هذا النحو أقيم النظام السياسى على الرغبة والمصلحة الفردية. والهيأة السياسية التى تصدر عن هذا التصور هى ما يسميه هوبس بـ"الليفيتان" (Leviathan)، وهو وحش بحرى يرمز إلى القوة الجماعية لعنف المجتمع"[٢].

لقد كان حتما أن تؤدى هذه الأسس، إلى تدمير إنسانية الإنسان. فقد أنتجت هذه الفلسفة –كما يقول النورسى- إنسانا متجبراً ومتمردا، ونفعيا ومصلحيا: "فالتلميذ المخلص للفلسفة "فرعون" ولكننه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس شىء لأجل منفعته، ويتخذ كل ما ينفعه رباً له. ثم إن ذلك التلميذ الجاحد "متمرد وعنود"، ولكنه متمرد مسكين يرضى لنفسه منتهى الذل فى سبيل الحصول على لذة، وهو عنود دنىء إذ يتذلل ويخنع لأشخاص هم كالشياطين، بل يقبّل أقدامهم! ثم إن ذلك التلميذ الملحد "مغرور، جبار" ولكنه جبار عاجز لشعوره بمنتهى العجز فى ذاته، حيث لا يجد فى قلبه من يستند إليه. ثم إن ذلك التلميذ "نفعى ومصلحى" لا يرى إلاّ ذاته. فغاية همته تلبية رغبات النفس والبطن والفرج، وهو "دسّاس مكّار" يتحرى عن مصالحه الشخصية ضمن مصالح الأمة[٣].

٢- أزمة المعنى وضياع الإنسان

ثمة دراسات نقدية غربية معاصرة تصف الإنسان المعاصر بالإنسان ذي البعد

---

(١) الكلمات، مرجع سابق، ص ٨٥٥، وانظر أيضا ص١٤٥.

(٢) النسب اللعين، مرجع سابق، ص١٩.

(٣) الكلمات، مرجع سابق، ص١٤٤.

الواحد، وهى إشارة مهمة إلى حالة التردى التى أصابت الإنسان فى جوهره وأفقدته الإحساس بقيمته ووظيفته والغاية من وجوده. الإنسان ذو البعد الواحد إنسان جسدى تتحكم فيه اللذات والرغبات، ويخضع للقيم الاستهلاكية، ولم يعد تشغله الأسئلة الوجودية الكبرى التى تعطى معنى لحياته، ومن ثم أصبح عرضة للتيه والضياع. لكن أزمة المعنى هذه لا يمكن تفسيرها خارج التحول الثقافى الذى أحدثه إقصاء الدين والمعتقدات من ضمائر الناس باسم العلم والعقلانية. فمنذ أن استغنى الإنسان بذاته عن الإله فقد النبع الذى كان يستقى منه مثله وأهدافه ويحدد غايته، ولم ينجح العلم فى الوفاء بوعوده الكبرى فى تحقيق سعادة الإنسان، تلك الوعود التى صنفها النقد الحديث فى خانة "الأساطير"[١]. إن هذه المفارقة بين ما كانت تعد به العلموية وبين واقع الإنسان المعاصر الذى ترك لنهب اليأس والفراغ، حفزت المفكر الفرنسى لوك فيرى(Luc Ferry) الذى شغل منصب وزارة التعليم مطلع هذا القرن إلى صياغة هذه المعادلة التى تقرن بين العقائد وتبصر الإنسان مقاصده وغاياته، وبين تأليه ذاته واندحاره المعنوى، وهى المعادلة التى جعلها عنوانا لكتابه "الإنسان الإله أم ومعنى الحياة"[٢]. لقد أصبح ما يعرف بأزمة المعنى يشكل العنوان الأبرز لنمط الحياة التى شيدتها المدنية الغربية، وتلك هى الحقيقة التى سجلها الفيلسوف الفرنسى أندرى مالرو (André Malraux) عندما قال: "حضارتنا هى الأولى فى التاريخ التى تجيب عن سؤال: ما معنى الحياة؟ بلا أدرى"[٣]. وإذا كانت هذه الجناية التى تعرضت لها الإنسانية قد تمت باسم العقلانية والعلموية، فلا عجب أن ترتفع أصوات العلماء وكبار المثقفين منددة ومطالبة بالانفكاك من قبضتها، وهى الصرخة التى أطلقها المفر الفرنسى ميشيل سير (Serres Michel) عندما قال:"إن العقلانية هى جالبة الموت وعلى العلم أن ينفك عنها."[٤].

والواقع أن اعتراض النورسى على مدنية الغرب تقع فى صلب معادلة "لوك فيرى" إذ قرن شقاء الإنسان باستغنائه وتأليه ذاته، كما قرن بين فلاحه وإقراره بعبوديته. وليس

---

(١) إن الحداثة -كما يقول إدغار موران- تمظهرت من خلال أساطير ثلاث كبرى: أسطورة التحكم في الكون، وأسطورة التقدم والضرورة التاريخية، وأسطورة السعادة. انظر: Ouverture. Op.cit. P.41 et suite.، مرجع سابق.

(٢) Luc Ferry, l'Homme- Dieu ou le sens de la vie. éd. Grasset. Paris 1996.

(٣) Roger Garaudy : Les Fossoyeurs Un nouvel Appel aux vivants. P: 9: L'ARCHIPEL1992.

(٤) النسب اللعين، مرجع سابق، ص٣٠.

من قبيل الصدفة أن يتطابق المشروع الفكرى لدى الرجلين وإن عبر كل منهما بطريقته الخاصة، فقد كان "لوك فيرى" وهو المفكر المسيحى معنيا كسلفه بالوقوف فى وجه العلموية الكاسحة كشرط لتحقيق إنسانية الإنسان. وإذا كان المفكر الفرنسى مشيل سير قد أدان العقلانية الجاحدة التى جعلها قرينة الموت، فكذلك فعل النورسى من قبل إذ حملها مسؤولية سقوط الإنسان. ففى نبرة لا تخفى تحديها لعلوم الفلسفة الغربية المدمرة، تتجه كلمات النورسى وكأنها سهام تمزق زيف هذه الفلسفة المتنكرة بقناع العلم: "تُرى هل يُجدى أعظم علومكم، وأعلى صروح حضارتكم، وأرقى مراتب نبوغكم وأنفذ خطط دهائكم شيئاً أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشرية التواقة إلى السلوان؟ وهل يقدر ما تطلقون من "طبيعة" لكم، وما تسندون إليه الآثار الإلهية من "أسباب" عندكم، وما تنسبون إليه الإحسانات الربانية من "شريك" لديكم، وما تتباهون به من "كشوفاتكم"، وما تعتزون به من "قومكم"، وما تعبدون من "معبودكم" الباطل، هل يستطيع كل أولئك من إنقاذكم من ظلمات الموت الذي هو إعدام أبدي لديكم"؟[1].

ثالثا: أخلاقيات العلم: نحو علم رشيد

١- صحوة الضمير الغربي

ثمة وعي متزايد لدى الهيئات العلمية بالأضرار التي تسبب فيها فصل العلم عن إطاره الأخلاقي، وهو ما استدعى ردود فعل منظمة تقودها هيئات ومنظمات حكومية ودولية تحت شعار "أخلاقيات العلم"[2]. ويتعلق الأمر بوعي المخاطر التي باتت تهدد جوهر الوجود الإنساني ومصيره، بل ويتوقف عليها مستقبله واستمراره في هذه الحياة. وسواء نظرنا إلى المسألة من زاوية علم البيئة وما يطرحه من مخاوف جدية حول قدرة الكرة الأرضية على تحمل مزيد من الأضرار الناجمة عن الاستنزاف المتوحش وغير الأخلاقي للطبيعة، أو من زاوية علم البيولوجيا وما يثيره من مخاوف جدية تمس سلامة الكائنات الحية بما فيها سلامة الإنسان، فإن الحصيلة النهائية التي بين أيدينا تفرض حتما إعادة النظر في المنظومة العلمية، والتفكير الجدي في صياغة مداخل جديدة للتطبيقات العلمية والتقنية.

---

(١) المرجع السابق، ص٧٥٧-٧٥٨.

(٢) ينظر على سبيل المثال برنامج اليونسكو عن أخلاقيات العلم على موقعها:
/http://www.unesco.org/new/ar/social-and-human-sciences/themes/about-ethics

ولقد توالت الإصدارات العلمية في هذا السياق، وهي على تباين مداخلها تتجه بجملتها إلى هدم الفجوة المصطنعة بين العلم والإيمان من جهة، وبين العلم والأخلاق من جهة ثانية، ساهم فيها إلى جانب الفلاسفة والمهتمين بحقل الدراسات الإنسانية نخبة من رواد علم الفيزياء أنفسهم. وقد صدرت هذه الأعمال بلغة مثقلة بالوعيد والإنذار، وكأنها صرخة أخيرة تستهدف إيقاظ الضمير العلمي الغربي على وجه التحديد[1].

إن اهتماما عالميا أكاديميا وفلسفيا بهذا الحجم وعلى هذا المستوى من القلق على مصير الإنسان المعاصر يعطي للموضوع أهمية قصوى، ويضع على عاتق المفكرين المسلمين مسؤولية ثقيلة بحكم الرصيد الإيماني والأخلاقي المتاح لديهم. إن العلماء والمفكرين الغربيين قاموا بجهد جبار في تشخيص حالة التردي الصحي للحياة البشرية، لكن جهودهم النقدية الجبارة تلك ربما أعوزها تقديم بدائل فعلية قادرة على إحداث التغيير وإعادة صياغة عالم الأفكار والقيم والمعتقدات. فرصيدهم في هذا المجال أصابه الكثير من التآكل، ويقابل بكثير من الازدراء بحكم تاريخه الرهيب، ولم يجد نفعا تحول بعضهم إلى الروحانيات الشرقية البوذية وغيرها، وهو ما يرشح الإسلام بامتياز للقيام بدور المنقذ، وإرشاد البشرية إلى إعادة اكتشاف فطرتها المنكوبة.

٢- جهود النورسي في تحقيق المصالحة بين العلم والإيمان

ضمن هذا السياق الحضاري المأزوم، يعتبر الإسهام الذي قدمه سعيد النورسي في هذا المجال عملا إنسانيا وحضاريا يتجاوز هموم الداخل الإسلامي إلى ملامسة جراحات الإنسانية العميقة. ومن المؤسف أن ضعف المؤسسات التعليمية والأكاديمية، واغتراب النخب السياسية والعلمية في عالمنا الإسلامي حالا دون ترجمة مشروعه الإصلاحي وتجسيده على أرض الواقع. بل إنه من الغريب حقا أن تصر الجهات المعنية في عالمنا على الشرود في الاتجاه المعاكس لرياح التغيير العالمية، وهي تمتلك كل المقومات التي تؤهلها لتكون في طليعة الشعوب المبادرة والرائدة، مدعومة برصيدها التاريخي في هذا المجال.

---

(١) ينظر على سبيل المثال:

Fritjof Capra. Le Tao de la physique: Une exploration des parallèles entre la physique moderne et de l'Est Mystique .

وإذا كانت النخب المعنية في عالمنا العربي والإسلامي قد فقدت ذاكرتها التاريخية وتنكرت لتجربتها الحضارية وانسلخت من جلدها تحت فتنة التقاليد الوافدة، فإن جهود النورسي الإصلاحية وكلماته في رسائله ستظل شاهد عيان على الجهد البطولي الذي أسهم به، والشجاعة الأدبية التي كان يمتلكها لرفع صوته عاليا ضمن ظروف دولية ومحلية قاهرة ومعاكسة.

فعلى مستوى الإصلاح المؤسساتي للمنظومة التعليمية، كان النورسي مدركا للاختلال الذي أصاب المناهج التعليمية وحجم التنافر بينها وبين القيم الدينية والأخلاقية، مما دفعه إلى المبادرة بتقديم مشروع إصلاحي في هذا المجال، فقدم سنة ١٨٩٦ مشروعاً لإنشاء جامعة إسلامية حديثة في شرقي الأناضول -ببلاد الأكراد - وأطلق عليها اسم "مدرسة الزهراء".

في هذا المشروع قدم النورسي تشخيصا دقيق لما آلت إليه مناهج التعليم ومؤسساته، ووصف بدقة متناهية الفجوة القائمة بين التعليم الديني والتعليم الحديث، وما أدى إليه من تعميق الخصومة بين العلم والدين. وهذه الخصومة لم تكن مجرد نقاش نظري منحصر بين أروقة المؤسسات التعليمية، بل كانت له تبعات ثقيلة تمثلت في الانقسام المجتمعي والعداء الثقافي المتبادل بين أتباع المنهجين[١]. وكان العلاج الذي اقترحه النورسي للقضاء على هذه الازدواجية المقيتة يقوم على الجمع بين تدريس العلوم الدينية في المدارس الحديثة تدريساً حقيقياً، وإدخال العلوم الحديثة إلى المدارس الدينية، أي دمج المنظومتين معا في نسق متكامل ومتجانس[٢]. وكان يرى أن هذا التداخل سيثمر في تحقيق التصالح بين أهل المدرستين، ويجعلهم يتحدون في القصد، وذلك بما يحدثه فيما بينهم من الميل وتبادل الأفكار[٣]. كان طموح النورسي أن يجعل من الجامعة الحديثة فضاء "تتصافح فيه العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين"، "وتتصالح فيه الحضارة الأوروبية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة" على حد تعبيره[٤]. إن هذا التداخل كفيل بأن يعيد العلاقة الحميمية بين العلم والدين، فـ "ضياء القلب هو

(١) صقيل الإسلام، مرجع سابق، ص٤٢٨. وكذلك: سيرة ذاتية، مرجع سابق، ص٧١-٧٢.

(٢) سيرة ذاتية، مرجع سابق، ص٧٢. وكذلك صقيل الإسلام، ص ٥٠٤.

(٣) صقيل الإسلام، مرجع سابق، ص٤٣٠.

(٤) نفسه، ص٥٠٠

العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، وبامتزاجهما تتجلّى الحقيقة، فتتربّى همة الطالب وتعلو بكلي الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية"[١].

ولم تكن الأوضاع الداخلية والدولية لصالح هذا المشروع، إذ لم يكن أصحاب القرار السياسى على قدر من الوعى يتيح لهم استيعاب مشروع حضارى من هذا النوع، كما ساهم فى إعاقته اندلاع الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى الانقلاب السياسى الذى أطاح بالمشروع الإسلامى ككل. وإذا كان النورسى قد عجز عن تحقيق مشروع مدرسة الزهراء بصورتها المادية، فقد وجد عزاءه فى كتابة رسائل النور التى أصبحت فى وعيه بمثابة جامعة حقيقية متنقلة، تؤدى وظيفتها على أتم وجه. لقد كان النورسى ينظر إلى هذه "الجامعة" بكثير من الرضا، وهو يراقب توسعها واستئثارها بالقلوب والعقول، وكان يقول: "إن الدرس الأساس الجدير بأن يكون منهجاً وبرنامجاً لجامعة الشرق هو رسائل النور التى تفسّر الحقائق الإيمانية للقرآن الكريم، والتى تقيم البراهين العقلية والدلائل المنطقية الإيمانية لإثبات مسائل القرآن العظيم"[٢]، كما كان يرى فى طلاب النور ممثلين له وحاملين لمشروعه، "فهم يؤدون مهمة مدرسة الزهراء حق الأداء"[٣].

يمكن إذن اعتبار رسائل النور عملا تطبيقيا لمشروعه الإصلاحى، فقد تمكن من خلالها من تجاوز الفصل المنهجى بين مدارك العقل وحقائق القلب وأذواقه، فهى تقيم البراهين على الحقائق الإيمانية بالاستناد إلى المعطيات العلمية، مقتلعة بذلك التعارض المزعوم بين العلم والدين من جهة، وبين العلم والأخلاق من جهة ثانية[٤].

لقد كان النورسي مقتنعا بأن ترقية الإنسان إنما تتم بالعلم والإيمان معا: "لقد جيء بهذا الإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء، لأن كل شيء فيه موجَّه إلى العلم ومتعلقٌ بالمعرفة حسبَ الماهية والاستعداد. فأساسُ كلِّ العلوم الحقيقية ومعدنها ونورُها وروحها هو "معرفة الله تعالى" كما أن أس هذا الأساس هو "الإيمانُ بالله

(١) نفسه، ص٥٠٤.

(٢) نفسه، ص٥٠٩.

(٣) نفسه، ص٥٠٨.

(٤) انظر كلامه مفصلا في الملاحق، ملحق قسطموني، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط٣، سنة ١٩٩٩، ص١٠٥.

جل وعلا"[١]. ويؤكد في هذا المقام أن الإنسان لم يزود بملكاته الحسية والعقلية لمجرد قضاء حاجاته المادية ومراكمة عالم الأشياء وتحصيل المنافع الدنيوية فحسب، وهو الوضع الذي انزلقت إليه الفلسفة المادية فحولت حياة الإنسان إلى عبث، وجردته من بعده الغائي، وأفقدته الإحساس بوظيفته الفطرية. إن الإنسان "مُنح استعداداً جامعاً لبذور الكمال، لذا لا يمكن أن تُمنح له هذه الأجهزة الوفيرة إلى هذه الدرجة الكثيفة لتحصيل هذه الحياة الدنيوية المؤقتة الفانية فحسب، بل لابد أن الغايةَ القصوى لهذا الإنسان هي أن يفي بوظائفه المتطلعة إلى مقاصدَ لا نهاية لها، وأن يعلن عجزَه وفقره بجنب الله تعالى بعبوديته، وأن يرى بنظره الواسع تسبيحات الموجودات، فيشهد على ذلك ويطّلع على ما تمدّه الرحمة الإلهية من إنعام وآلاء فيشكر الله عليها، وأن يعاين معجزات القدرة الربانية في هذه المصنوعات فيتفكر فيها ويتأمل وينظر إليها نظر العبرة والإعجاب[٢].

إن تجريد العلم من هذا البعد الإيماني يحوله إلى تقنية عمياء، إذ يسقط من حسابه الأسئلة الوجودية الكبرى، وهي أسئلة من طبيعة غائية وغيبية يعجز العلم التقني عن الإحاطة بها. وهذا العجز -كما يؤكد النورسي- يفسر حاجته الضرورية للنبوة التي تقوم بوظيفة الترشيد والإمداد، وعن طريقها فقط يهتدي العقل إلى تبديد حيرته وتحصيل الأجوبة الشافية حول تلك الأسئلة التي أرقته على مدار التاريخ: "من أين؟ وإلى أين؟ ومن تكون"[٣]؟

خلاصة

هذه الخلاصة هي قراءة مركزة في طبيعة المقاربة التي اعتمدها النورسي في معالجة أزمة العلم الحديث، وهي مقاربة مزدوجة أخلاقية وإيمانية، فجعل من الإيمان مرجعية تأسيسية تعيد إلى العلم وعيه بطبيعته ووظيفته، وتحرره من نزوعه "الفاوستي"(الطغياني)، كما جعل من الأخلاق حاضنة ثقافية تمنحه أبعادا قيمية ومعنوية وتحد من تقنيته العمياء المدمرة للطبيعة والإنسان.

ابتداء، ميز النورسي بين منهجين يرى أنهما تحكما في مسيرة العلم وتطوره، منهج تشكل في أحضان النبوة والدين، ومنهج تشكل في أحضان الفلسفة الإنسانية الجاحدة

(١) الكلمات، مرجع سابق، ٣٥٥، وكذلك ص٣٦٧.
(٢) نفسه، ص٣٦٧.
(٣) نفسه، ص٦٣.

للدين[١]. ولتأكيد مصداقية مقاربته، سلك النورسي طريق الموازنة بين الثمرات المترتبة على كل من هاذين المنهجين، وهو مسلك مكنه من استخلاص نتائج مقنعة يمكن اعتبارها متطابقة إلى حد بعيد مع نتائج النقد المعاصر على المستوى الديني والأخلاقي معا.

- **على المستوى الديني: الموازنة بين العبودية والطغيان**

يرى النورسي أن العقل الجاحد الذي أعلن عصيانه للدين واستقلاليته بذاته أثمر "شجرة زقوم" حيث يتحول البشر إلى فراعنة ونماريد، آلهة وأصناما، مدعي ألوهية، تحكمهم القوة الشهوية البهيمية. وبالمقابل، أثمر العقل العابد "شجرة طوبى" حيث يهتدي العقل بالنبوة، وتنضبط القوة بالعدل، ويعيش الناس "كرماء وأسخياء، ذوي مروءة وشهامة في حسن سيرة وجمال صورة ذات عفة وبراءة"[٢]. هذا العقل العابد ينعته النورسي بـ "تلميذ القرآن المخلص"، تلميذ "متواضع، ليّن هيّن"، "فقير وضعيف"، ولكنه "قوي لاستناده إلى قوة سيده المطلقة"[٣].

ولا تختلف هذه الخلاصة من حيث جوهرها عما يسميه النقد المعاصر بـ"الفاوستية" للدلالة على تأله الإنسان وطغيانه وإعلان مركزيته في الكون، وما صاحب ذلك من جناية في حق الطبيعة والإنسانية على السواء. كما تتطابق هذه الخلاصة مع الصيحات المعاصرة الداعية إلى تجاوز عقلانية الأنوار بإطلاقيتها الساذجة، والإقرار بنسبية العقل البشري ومحدودية الإدراك العلمي ونهاية اليقينيات العلمية[٤]. لقد كان الهدف الأول والأساس لعمل النورسي هو الدفاع عن حقائق الإيمان استنادا إلى حقائق العلم، وكان يؤمن بأن لا مستقبل للبشرية إلا بالعودة إلى الدين، وكرس كتاباته لتمكين سلطة الدين في قلوب الناس ومناحي الحياة، وهو ذات الاتجاه الذي تتجه إليه التنبؤات المعاصرة. لقد سبق للفيلسوف الفرنسي أندري مالرو أن تنبأ بأن القرن الواحد والعشرين إما أن

---

(١) نفسه، ص٦٣٩.

(٢) الكلمات، مرجع سابق ص٦٤٠. ويقول النورسي بهذا الخصوص: "إن النبوة تمضي آخذة وجهاً لـ "أنا". والفلسفة تُقبل آخذةً الوجه الآخر لـ "أنا". فالوجه الأول الذي يتطلع إلى حقائق النبوة، هذا الوجه منشأ العبودية الخالصة لله. أي أن "أنا" يعرف أنه عبدٌ لله، ومطيع لمعبوده". نفسه، ص٦٤٠.

(٣) نفسه، ص ١٤٤

(٤) تحت هذا العنوان صدر كتاب المفكر الفرنسي إليا بريكوجين وأوديل جكوب، انظر: Ilya prigogine, Odile Jacob, La fin des certitudes, 1996.

يكون دينيا أو لا يكون، وصدرت أعمال وعقدت ندوات دولية تعيد النظر في النظرة التقليدية الغربية إلى الدين، وعودته ليحتل مساحات واسعة من الحياة المعاصرة[١].

- **على المستوى الأخلاقي: الموازنة بين التيه والرشاد**

على المستوى الأخلاقي، جاهد النورسي في سبيل تثبيت الرسالة الأخلاقية للعلم ودوره في الرقي بإنسانية الإنسان متى اهتدى بالتعاليم الدينية واسترشد بمبادئها. "فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين وممتزجتين، أي في أي وقت أو عصر استجارت الفلسفة بالدين وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، انتعشت الإنسانية بالسعادة، وعاشت حياة اجتماعية هنيئة. ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة[٢]. إن "حكمة القرآن تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلاً من "القوة"، وتجعل "رضا الله سبحانه" ونيل الفضائل هو الغاية، بدلاً من "المنفعة"، وتتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة، بدلاً من دستور "الصراع"، وتلتزم برابطة "الدين"...، وتجعل غاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور، وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية[٣]، وهو ما يساعد الإنسان في "رحلته الطويلة المضنية العاصفة نحو الأبدية، ويهوّنها عليه[٤].

إن هذه الصيحة التي أطلقها النورسي في ذلك الزمن الرديء حيث كانت النخب الشرقية تتيه في صحراء التغريب على حد تعبير تونبي، كانت قد وضعت بذرة أهم تحول شهده النصف الثاني من القرن العشرين في الموقف العلمي، مع ارتفاع أصوات كبار الفلاسفة والمثقفين الداعية إلى تخليق العلم وأنسنته والعودة به إلى أحضان القيم والثقافة بما يرشد الإنسان نحو وظيفته ويبصره بغاياته ويعطي معنى لحياته[٥].

---

(١) انظر على سبيل المثال الندوة التي عقدت في جزير "كابري" بدعوة من المؤسسة الإيطالية للدراسات الفلسفية، والتي صدرت تحت عنوان"الدين" La religion. Jacque Derrida &Giani Vattimo. Ed. seuil 1996.

وينظر أيضا كتاب: "تحدي القرن المقبل: التوفيق بين العقلانية والروحانية"(Le Défi du Prochain siècle.) للكاتب حميد أمير.

(٢) الكلمات، مرجع سابق، ص٦٣٩.

(٣) نفسه، ص١٤٥، وكذلك صفحات: ٨٥٥-٨٥٦.

(٤) نفسه، ص٧٦١.

(٥) ينظر على سبيل المثال: Edgar MORIN Science avec conscience.

وأخيرا، فقد حاولت هذه الورقات إثارة الانتباه إلى إسهام النورسي في تصحيح مسار البشرية على مستوى خياراتها الكبرى، وهي بالتأكيد قاصرة عن بالوفاء بحق هذا الإنجاز، خاصة عندما نضعه في سياقه الحضاري، ونقرأه في ضوء الإكراهات التاريخية التي صاحبته، والعوائق التي اعترضته، ولكن، حسب هذه الورقات أنها أثارت الانتباه إلى أن العمل التجديدي والتأسيسي الجدير بأن يقرأ باعتباره عملا إصلاحيا إنسانيا نجح في تجاوز حدود الزمان والمكان، رغم ثقل القيود وشدة الحصار.

المراجع

أحمد بنبلا: النسب اللعين: نقد العقل الغربي، مجلة المنعطف، العدد ٢٤/٢٣، سنة ٢٠٠٤.

إبراهيم مذكور: معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.

دجون أوبرت فول: التجديد والإصلاح في منتصف القرن العشرين: سعيد النورسي والمسألة الدينية، ترجمة: خالد حاجي، مجلة المنعطف المغربية، العدد:١٩/١٨، سنة ٢٠٠١.

سعيد النورسي: سيرة ذاتية، النسخة الإليكترونية. موقع سعيد النورسي:
http://www.nuronline.com/kulliyat.php?bn=11&pn=tarihce

صقيل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢.

الكلمات، النسخة الإليكترونية. موقع سعيد النورسي:
http://www.nuronline.com/kulliyat.php?bn=11&pn=tarihce

اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٥.

الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط٣، سنة١٩٩٩.

مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار إحياء التراث العربي، ط٢، سنة ١٩٨١.

Edgar Morin.« Ouverture » in : Modernité 2004, Auditions publiques au théâtre du Rond-point . Cahier Laser N°8.P.39-40.

Raymond Aron, Les Etapes de la pensée sociologique. édition Gallimard. 1967.

Roger Garaudy, Biographie du XXème siècle, Tougui, 1985. P.146.

Connexion. Bulletin international de l'enseignement scientifique et technologique et de l'éduction environnementale de L'UNESCO. VOL. XXX, No. 3-4

Encyclopédie de l'Agora: Scientisme. http://agora.qc.ca./mot.nsf/dossiers/scientisme

Ilya Prigogine – Isabelle Stengers. La Nouvelle alliance. (les sciences et la culture sont en interaction)